عناصر لفهم أزمتنا النقدية

ابراهيـم الخطيـب

قدم هذا التدخل في (اللقاء الثقافي الرابع) باصيلا (صيف 78) ونشر ، دون تعديل ، بجريدة (المحرر) عـدد 24 دجنبـر 1978 .

ا. خ.

كان من المفروض أن يكون تدخلي جزءا من مجموعة من التدخلات (*) حول أزمة المنهج في النقد الادبي بالمغرب . لكن ، نظرا لتغيب الاخـوان الثلاثة ، فسيكون تدخلي قصيرا . موجزا ، على أساس أنه مجرد وجهة نظر قد تكون مناسبة لنقاش غني من طرف الحاضرين .

ان المشكل الاساسي الذي يعترض هذا الموضوع هو تحديد الناقـد الادبي : م نهـو ؟

– هل هو الشخص الذي يقوم بكتابة تلخيصات لاعمال أدبية ؟

– هل هو الذي يقدم عروضا حول كتب ، روايات أو مجاميع قصصية أو دواوين ، ثم يدلي برأي عام في نهاية العـرض ؟

– هل هو الشخص الذي يملك زادا نظريا يمكنه من رؤية النص فيتوصل الى بعض الظواهر ويتحاشى (عن قصد أو بدون قصد مسبـق) ظواهـر أخرى ؟

– أم هو ذلك المنظر ، الغائب – ربما – عن ثقافتنا النقدية العربية ، والذي يستطيع أن يقدم تحليلا شاملا وكليا للمشاكل الجوهرية البنيويـة للنصوص .

ان تحديد وظيفة الناقد مهمة صعبة بدون شك . لكننا سننطلق مـن اعتبار ما هو واقع ، أي من تلك الكتابات التي نقرأها ،بصفة أساسية ، في الصحافة والتي تعتني بالاشكال الادبية المذكورة ، أو نقرأها في مجلات وطنية، غير متخصصة ، لانها تحتوي مجالات ثقافية متعددة .

وعندما نطرح ، كعنوان لهذه الجلسة ، « ازمة المنهج في النقد الادبـي

(*) كان المفروض ان يشارك في الجلسة الخاصة بالنقـد كـل من : محمـد بـرادة ، البشيـر الوادنوني ، نجيب العوفي بالاضافة الى ابراهيم الخطيب .

في المغرب ، فاننا نكون كمحصلي حاصل لمشكلة كانت مطروحة منذ أوائل هذا القرن في الثقافة المغربية (أبان البحث عن الخصائص المحايثة للمفاهيم والحقول المعرفية المختلفة) . لقد شهد القرن التاسع عشر تطورا في عدد من العلوم الانسانية : السوسيولوجيا ، الانتروبولوجيا ، التاريخ الاقتصاد ... الخ ولكن الادب ، وبالتالي النقد الادبي ، بقيا اما كملحق لهذه العلوم ، أو كمعرفة تبحث عن موضوعها ، في هذا الصدد نجد ناقدا انجليزيا هو (ريتشاردز) يصف ، في سنة 1925 ازمة النقد الادبي على النحو التالي :

ـ « انه ـ أي النقد الادبي ـ يشبه مخزن حبوب فارغ » .

ـ « انه يحدج مجاملات ويصوغ مزيجا من التحذيرات » (اشارة الى النقد الذي يشكل هراوة على رأس المبدع)

ـ « انه كمية كبيرة من الملاحظات الصائبة ، لكنها غير منتظمة » (بعبارة أخرى : ان الناقد يدلي بمجموعة كبيرة من الملاحظات الصحيحة لكنها تبقى مشتتة ، دون أن تتشكل في بنية نظرية متكاملة) .

ـ « انه خطابة كثيرة » (حديث يستهلك نفسه) .

ـ « غموض ولا ينقطع » (لان الموضوع ، موضوع النقد ، غير محدد) .

ألا يتعلق وصف (ريتشاردز) ، اذن ، بمشكلة عامة ، لا تزال حاضرة ؟

في نفس هذا الاطار ، وفي مدة قريبة جدة ، سألت ميتزو رونا (شومسكي) ، في الاحاديث التي أجرتها معه ، عن علاقة اللسانيات بالنقد الادبي وعن مشاكل العلوم الانسانية ، وبالضبط : السوسيولوجيا ، والدراسات الادبية ، فأجاب : « ان النقد الادبي يتحدث عن أشياء ولكنه بلا مبادىء » أي أنه لم يستطع أن يبني لنفسه منظومة من المفاهيم المحددة (شومسكي) : « ان المواقف في العلوم الانسانية والدراسات الادبية توجد في الغالب ، مشخصنة » أي متعلقة بأشخاص ـ كل يدافع عن موقف . فعندما يتخذ موقف يجب أن يدافع عنه مهما تكن النتائج . وعلى هذه الصيغة تكون المواقف والمدارس متداخلة مع الافراد ، لانه في غياب المبادىء ، أي في غياب العلم ، تكون هناك قراءات عشوائية يقوم بها أشخاص متعددون ، ولكنها لا تشكل نظاما نظريا نقديا يستطيع أن يستوعب كمية ضخمة من النصوص أو يفسر ، على الاقل ، النص المدروس تفسيرا متكاملا .

ان المهم هنا ، هو أن نلاحظ كيف تناول الرجلان مشكلة النقد الادبي : فبالنسبة لـ (ريتشاردز) ، الذي قدم أوصافا متنوعة لازمة النقد الادبي ، حينما أراد أن يتجاوز مشكل عدم علمية النقد من أجل علمنة للنقد ، وجد نفسه يسير نحو « السيكولوجية الاختيارية » ، وبالتالي نحو « دراسة الاثر الادبي في اطار العلاقة بين الكاتب والقارىء ، أو بعبارة أخرى ، ، في الحافز ورد الفعل . أما بالنسبة لـ (شومسكي) فانه يعتبر النقد الادبي كعلم الاجتماع، كلاهما لم يستطع أن يوجد مفاهيم محدد ... فاذا كان علم الاجتماع لا يملك

نظرية لغوية كنظرية نموذجية Modèle ولم يستطع أن يعتبر القول الاجتماعي Discours أساسيا في التحليل .. فان النقد الادبي (كما يرى شومسكي) لا يتوفر على مباديء محددة ، ولهذا أصبح مجموعة من القراءات ، لكل واحد الحرية في الذهاب بها الى المدى الذي يريد : قراءة سوسيولوجية ، قراءة سيكولوجية ، قراءة تاريخية ... للخروج من مشكل انعدام المبادي.

بعد هذه المقدمة ، هل يمكن لنا أن نتحدث عن وضعيتنا نحن في هذا الاطار العام لازمة نقدية ؟ ، قبل ذلك ، أريد أن أدلي بملاحظتين :

1) الاولى : هي أنني حينما وضعت هذه النقاط كنت أعتمد على الذاكرة ولم أقم بمراجعات دقيقة .

2) الثانية : هي أن الحديث الذي سأقدمه يتعلق ببعض الممارسات النقدية وليس بالكل .

وكبداية من الضروري الاشارة الى مسألة التكوين الثقافي لهؤلاء النقاد بصفة عامة . انه تكوين جامعي ، مضطرب (يحمل سمات المحتوى العام للتعليم الجامعي في المغرب ابان فترة الستينات) من جهة ، ويهيمن عليه التراث من جهة ثانية (الدراسات الادبية التي تتعلق بعصور قديمة) أو مناهج تدرس من خلالها نصوص أدبية حديثة ، لكن بواسطة مفاهيم « التاريخ الادبي » (الظروف الموضوعية ، البنية الثقافية العامة ، المؤثرات أو تداول الموضوع الى آخره) . قلت : « انه تكوين تراثي » بمعنى أنه لا يتضمن قراءة صحيحة للتراث ، وانما قراءة سطحية ، وفي بعض الاحيان مشوهة ، هذا النموذج الذي كان سائدا في الجامعة ، هو نموذج مدرسي ، كان ثريا في تحليل (لانسون Lanson) ، لكن ، بالاستعمال المعياري له ، أصبح المنهج فقيرا في النهاية . ويتجلى هذا الفقر ، مثلا ، في ظاهرة تقديم المضمون على الشكل ـ كأن يقع ، في الدراسات الادبية التي تتعلق بالشعر ، تهميش العروض والبلاغة ، اذ لم يكن بالامكان ـ لاسباب كثيرة ـ توظيف العروض والبلاغة توظيفا صحيحا لقراءة التراث لانه ليست هناك نظرية للكتابة العربية : هكذا ننتقل من مشكل جزئي الى مشكل كلي .

هناك نقطة أخيرة في هذا التكوين، هي مسألة ضعف التكوين النظري العام : فلم يكن هناك ، في الجامعة ، تكوين نظري يتناول المشاكل الكبرى للأدب ، كمشكل تطور الانواع الادبية (الانتقال من الملحمة الى الرواية) أو مشكل حركة هذه الانواع (العلاقة بين المذكرات الشخصية ، كأحد أشكال الكتابة ، والسيرة الذاتية) أو مشكل البنية الموسيقية وعلاقاتها بدلالة الشعر ذاته ... مشاكل نظرية متعددة ، أساسية ، في فهم ظاهرة الكتابة ، لم تكن مطروحة في برنامج التكوين الجامعي .

هذه الوضعية أدت الى نشوء توتر : فالنقاد الذين كانوا آذ ذاك طلبة ، نشأ لديهم شعور بأن هذه المناهج عقيمة ، متصلبة ، وانه ينبغي اختيار

مناهج أخرى : مرنة ، ومفتوحة على الحديث اليومي Discours
لكن مسألة المنهج الآخر كان الاختيار فيها محددا ، وتبعا لذلك وجد هؤلاء الطلبة القدامى بأن نموذج النقد الشرقي (مصر ، سوريا ، لبنان) لانه يخرج على هامش الجامعة في مجلات شبه مختصة ويلبي رغبتهم في تجاوز الوضعية الثقافية الموجودة ، هو النموذج الممكن ولقد كان النقاد المغاربة يجدون هذا النموذج (الذي ارتبط في أذهانهم بالوضعية الميثولوجية للمشرق الذي يثور) ممثلا في بعض الاسماء : مندور ، غالي شكري ، محمود أمين العالم ، لويس عوض ، الخ . ومع كثرة القراءة ، استقرت هذه الاسماء كنماذج في الذاكرة ، وفي اللا وعي .

ان النموذج المشرقي كان مطعما : من جهة بمفاهيم سوسيولوجية ، ومن هنا هيمنة العلاقة بين النص الادبي والمجتمع أو النقد الادبي والتاريخ، ومن جهة أخرى كان هذا النموذج مطعما بالايديولوجيا : مفاهيم الالتزام القومي ، الناصري ، الماركسي (الحزب ، الطبقة الخ) . وهذان النوعان من المفاهيم شكلا الرواسب الاساسية للنموذج النقدي المشرقي في المغرب ، والذي كان هو الممكن الوصول اليه . لا نمعظم الذين تخرجوا من كلية الآداب (قسم اللغة العربية) كانت هذه اللغة ، لديهم الوسيلة الوحيدة للاتصال المعرفي .

على ان هذه الوضعية قد أحدثت فيها بعض التغييرات نظرا لان المغرب هو غير المشرق . فبدلا من التركيز في المنهج على تأويل المضمون (وهو ما كان مهيمنا في النموذج المشرقي) حلت رغبة ، غير منظمة ، في الوصول الى معرفة العلاقة بين الشكل الادبي والمحتوى . وبالتالي ، بدأت سيرورة بطيئة من الشرح الى الوصف ... لا تزال الآن في خطواتها الاولى (وتحتاج الى تدعيم نظري متين) . واستبدلت المفاهيم السوسيولوجية التي تتركز في فهم علاقة الادب بالمجتمع كعلاقة انعكاس ، استبدلت بمفاهيم سياسية محددة : مثلا ، استعمال مفهوم الصراع الطبقي ، البرجوازية الصغيرة ، داخل الحديث النقدي لتأويل الشكل والمحتوى في نفس الوقت . كذلك ، بدل المفاهيم الايديولوجية التي أشرنا اليها في النموذج المشرقي . جاءت مفاهيم تتعلق بجدول الاعمال السياسي : الثقافة الوطنية ، الثقافة الرجعية ، الثقافة التكنوقراطية ... الخ . وفي اطار هذه المفاهيم الايدبولوجية ، السوسيولوجية السياسية ، تنتج صراعات كا نلها ظاهر نقدي ، لكنها في العمق ذات مدلول سياسي .

هذه الوضعية ساهم في تدعيمها كون النقد الادبي ، عندنا ، متمركز في الصحافة اليومية . وليس من الصعب ، في هذا الصدد ، أن نجد تحليلا نقديا ينشر جنبا الى جنب مع تحليل سياسي ، وناقدنا لا يخاطب قراء متخصصين في النقد الادبي . بل يخاطب المثقف المتوسط الشغوف بالقراءة العابرة .

وهذا هو أحد العناصر التي جعلت النقد ، عندنا ، ينساق بسهولة نحو تبسيط المفاهيم السوسيولوجية ، ولا يكلف نفسه مشقة البحث النظري الرصين في الادب .

الامر الثاني ، هو أنه ، نتيجة لازمة النشر ، وقع اللجوء الى الصحافة اليومية ، كمجال لتبليغ الحديث النقدي للقراء . على أن المشكل ليس مشكل المكان (بمعنى : هل يكفي أن أكتب في صحيفة معينة حتى أكون ذا صفات معينة ؟ تقدمي ، رجعي ، يميني ، يساري الخ) بل المشكل هو أن هذا الحديث النقدي يستعمل كرافد وحيد داخل تيار كبير من ثقافة مؤولة بمفاهيم اليسار واليمين .

ان هذه المعضلة لا يمكن حلها في الوقت الراهن .

عن هذه الوضعية : في السلوك النقدي ، في مكان الكتابة ، نتجت ثنائيتان : 1) البحث النقدي . 2) المقالة النقدية . وفي اطار هذه الثنائية وقع التخلي عن البحث النقدي (الذي يتطلب وقتا تحضيريا طويلا وتأملا نظريا دقيقا) والاتجاه نحو المقالة النقدية (التي هي عمل ، على العكس ، يمكن انجازه بسرعة وسهولة) لتغطية الاعمال الادبية التي تنشر في الصحافة اليومية أو خارجها ، ومن هذه الثنائية نشأت وضعية أخرى هي وضعية التداخل فيما بين النقد المتخصص والنقد غير المتخصص . فالنقد المتخصص غائب على المستوى الكلي لكنه حاضر على مستوى المفاهيم ، والنقد غير المتخصص حاضر على المستوى العام ، حاضر على مستوى اختلاط المفاهيم .

عن هذه الثنائية الاولى ، ترتبت ثنائية أخرى ، وهي ثنائية : الكلي والجزئي . فاذا كان المطلوب من النقد هو الوصول الى فهم البنية الكلية للعمل الادبي ، وبالتالي الى النظام الذي تتجسد فيه أجزاء النص كعلاقات ، فان الطرف الثاني من الثنائية يهتم بالملاحظة الصائبة ويقف عند حدود المقروء بكيفية مباشرة في العمل الادبي ، ولا يتجاوز هذه الحدود الى الآلية أو الجهاز الذي أنتج العمل الادبي ككل .

اذن ، فمن جهة : هناك البحث والمقالة . ومن جهة : هناك ما هو نقد كلي ، وما هو نقد جزئي ... هذه الوضعية ، مضافا اليها مشاكل التكوين الثقافي وأماكن النشر ، هي ما يمكن أن أسميه (بصفة شخصية) مأزقا : انه مأزق ، لان الامر يتعلق ببنية وليس بحالة يمكن تشخيصها بسهولة .

لماذا ؟

ـ لان النقد الادبي ، عندنا ، لم يحدد موضوعه بعد . فحين نقوم بنقد أدبي ، فالمفروض أن نبرز الفروق وأن نحدد ما نريد قوله بالضبط : هل نقوم بالحديث عن وضعية ثقافية عامة ؟ هل نشير بطرف خفي الى صراعات سياسية ؟ أم المطلوب هو اكتشاف النص الادبي ، موضوع الكتابة (هذا

النص الذي يبدو فيما بعد « مسكوتا » عنه !) .

ـ لاننا لم نتمكن بعد من رسم حدود العلاقات فيما بين النقد الادبي والسوسيولوجيا ، من جهة (الى أي حد يمكن الاستفادة من السوسيولوجيا في النقد الادبي ؟) ومن جهة أخرى لم نستطع أن نحدد كيف يمكن للنقد الادبي أن يستفيد من الابحاث الشكلية في الادب : بعبارة أخرى ، الى أي حد يمكن أن نستفيد في النقد الادبي الذي هو يومي ، من هذه الابحاث المتعلقة بالنظرية العامة للادب ؟

انني أترك لكم الكلمة .

« الآداب »

مجلة شهرية تعنى بشؤون الثقافة والفكر

المدير المسؤول : د. سهيل ادريس .

صدرت منذ 1952 ، ومع ذلك فهي ما تزال حاضرة بيننا باختياراتها القومية ، وتوجهها الوحدوي .

تقارير وملفات تغطي الحركة الثقافية في العالم العربي .

دراسات . نصوص قصصية وشعرية .

تباع في كل الاقطار العربية .

ثمن العدد بالمغرب 7 دراهم .